الفراغ مفسدة

ذهبت أميركا في الحرص على الثروة والاستكثار من المال كل مذهب، وتصرفت بها الهمم في التحصن من كل ما يجر عليها الوكس في الأموال، فلجأت إلى استنهاض رعيتها للاندفاع في العمل والتقلب في أساليب الاحتراف وقررت من زمن غير بعيد أن تأخذ خمسمائة فرنك من الذين قعدت بهم عزائمهم عن التماس المكاسب لما اجتمع لهم من أسباب اليسار، أو لما غلب عليهم من رذيلة الكسل تزهيداً لهم في البطالة، وترغيباً في مزاولة الأعمال، ولم تستثن في تقريرها أصحاب الصناعات الفكرية ومن هم في طبقاتهم من الناس.

فأصبح الذين كانوا ينتابون مجتمعات اللعب ويترددون إلى حفلات اللهو طلباً للطرب واستماعاً للملاهي لا يجدون إلى الاستمتاع بالعطلة سبيلاً، وصار الرجل في آفاق أميركا لا يجد بداً من أن يكون له محترف يحترف فيه مهما كثرت ثروته وعظم جاهه.

هذا من جملة ما تستعين به الحكومات على استغزار ثروتها، فهي لا تجد لها مندوحة في ذلك عن الافراط في معاقبة الذين استحكم فيهم الزهد في العمل، ولو ذهبت إلى اغفال هذا الأمر الجليل للزم أموالها من التناقص وعمرها من التراجع ما لزم.

لا جرم أن العمل مكثرة للمال، ومجلبة للغنى لا تقوم أمة إلا به، ولا يدور سلطانها إلا عليه.

ومن موجب الأسف أن كثيراً من الناس في أمصار بلادنا يذهبون إلى الاستنكاف من مزاولة الأعمال لِما وقر في نفوسهم من أن العمل مسقطة لهم من أعين القومَ أو لما يتوهمونه من أن ما أشرفوا عليه من المال قد أغناهم عن الحاجة إلى غيره، أو غير ذلك من العلل التي لا يجد لها العقل في الصحة رسوخاً. يجتزي الرجل منهم بما كنزله والده من الكنوز، وما عقد له من العقد دون أن تسمو به همته إلى طلب المزيد من ذلك، ثم يذهب إلى التأنق في المطعم والتنطس في الملبس وإنفاق المال ي غير وجهه من الاسترسال إلى الشهوات والانصراف إلى الرذائل وغير ذلك من الأمور، فلا يأتي عليه حين من الدهر إلا وقد أصبح بمنزلة الفقير الذي لامال له، وإذا لم تكتب له المهارة في عمل يستظهر به على إصلاح حاله وتقويم أوده مال إلى استدرار الرزق من أخبث موارده من السؤال والاتكال والخلاعة والاحتيال وغيرها من الامور التي تغض من الانسان وتضع من أخلاقه.

نحن اليوم إلى العمل أحوج منا إلى البطالة، وقد تمهدت لنا الطرق إليه، فلم يبق لأحد من الناس عذر في القعود عنه، فجدير بنا أن تكون همتنا مصروفة إلى الاهتمام بمصالحنا والاعتناء بمرافقنا، وأن نوطن أنفسنا على الاقتداء بالأمم التي بلغت في العلوم والحضارة المبالغ فيما يستحسن من مجامع أفعالها وأوضاعها فلا نجتاز زمناً يسيراً إلا ومنزلتنا في العلم والحضارة مثل منزلة الأمم المستقلة.

جريدة لسان العرب ١٥ تشرين الأول ١٩١٨.

حرص الدولة على حقوقنا

شرع رجال الدولة العربية ينظرون في الأسباب التي من أجلها تبلغ الأمم من العظمة كل مبلغ، ويصرفون همهم إلى التحفظ مما وقع فيه رجال الترك الذين طمع الدهر بهم من التغافل عن الاهتمام بمصالح رعيتهم، والاعتناء بمرافق أهل طائفتهم، فقد أعلن مدير المخابرات العمومية أن من الواجب على المأمورين كافة أن يُتمّوا كل ما يتقلدونه من جلائل الأعمال وأصاغرها في مقتضيات أرقانها وألا يسترسلوا إلى الكسل والمماطلة بحقوق الناس، وإذا تبين أن من المأمورين فريقاً يستبقون عندهم ما يتسلمونه من الأوراق أكثر من يوم دون الجد في إنجاز ما تشتمل عليه هذه الأوراق يُعزلون عن أعمالهم فوقع هذا الاعلان موقعه، وانشرح له صدر الذين يحتفلون بارتفاع العرب.

قال ابن المقفع:

«اعلم أن من العجب أن يبتلى الرجل بالسلطان فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها في ساعات دعته وفراغه وشهوته وعبثه ونومه، وإنما تكون الدعة بعد الفراغ».

لاجرم أن الوقت كنز نفيس... فمن الضروري الحرص عليه، ومن الصعب أن يستدرك المرء ما يفوته من الأمور فيما يتوالى عليه من الزمان، و من الخطأ أن يتثاقل الرجل عما يندب إليه من الأمال ويفتر عزماً فيها

وهو يتناول من المال جزاء له بما يصنع ما يستعين بـه على إصلاح حاله وتقويم أوده.

حق على المأمور أن يكون من الاكتراث لمصالح النـاس بحيث وضعته الدولة من الكرامة، وأجرت عليه من أسباب السعادة.

وإذا سقط عنه النظر في شؤون الخلق والاحتفاظ بحقوقهـم آل الأمر بسبب ذلك إلى الانحطاط.

وقد وجدنا من إعراض المأمورين أيام الدولة التركية عـن تعهد أمور الناس وتفقد حقوقهم، والقيام بحق ما يجب عليهـم ما ترق لـه القلوب، وتبكي عليه العيون، فقد بلغ من إهمالهم لمصـالح الأمـة أن الرجل كـانت تذهب حقوقة وليس له من يستنجد به على قضائها لأن رجـال الحكومة كبارهم وصغارهم نشأوا على الاستصغار لأمور الرعية وتسديد أحوالها.

وإنما السبب في مماطلة المأمورين زمن الترك بحقوق الناس ما كـان من رغبتهم في استصفاء أموالهم على سبيل الرشوة، فمـن تيسر لـه أن يرشي الحاكم راجت أشغاله وظفر بمطلبه ولو باطلاً...ومـن قعد بـه الفقر عـن بذل الرشوة في قضاء حاجاته ذهبت حقوقه.

على مفاسد الأخلاق نشأ رجال الدولة التركية، فكيف يدوم سلطانهم ويمتد ظلهم!

كان الرجل منهم يعمد في الظاهر لخدمة الشعب وليس في الباطن مقصده أن يقوم بما يجب عليه، وإنما همه أن يخلد إلى الراحة والدعة خلال العمل، وأن ينتهب ما تمتد إليه يده من أموال الناس حتى إذا اجتمعت لـه أسباب اليسار اعتزل العمل ومال إلى الفراغ وليس له من يحاسبه على ما استلبه من مال الأمة.

وقد كان من كبار المأمورين في العهد البائد من يجعلون من الحجاب على أبواب غرفهم، فإذا قصدهم قاصد للاستظهار بهم على قضاء حقوقه صده الحاجب عن الدخول زعماً منه أن الحاكم نائم أو مشغول، وإذا أذن له في الدخول وتيسر له أن يرفع أمره إلى الحاكم فربما دافعه الحاكم وأجّله... فكان الخطب جليلاً في مجامع الأحوال.

لا جرم أن المأمورين في عنفوان دولتنا يقلعون عن هذه الأمور كلها، ويعمدون للجد في العمل، والحرص على الوقت... فإن الأمة لا قوام لها إلا بالرجال، وإذا رزقها الله من الرجال من يحتفظون بحقوقها، وينظرون في أمورها، ويبالغون في تسديد أحوالها، والاهتمام بمصالحها بلغت هذه الأمة من العلياء كل مكان، وصارت قدوة لمن يجاورها من الأمم يقتدون بها في كل مذهب تذهب فيه، أو غرض ترمي إليه.

وأفضل الأمم من كانت قدوة لغيرها في محامد الأخلاق ومحاسن الأوضاع.

جريدة لسان العرب ٢٤ تشرين الأول سنة ١٩١٨

كيف تجتنب الحروب

بينما نرى عقلاء الرجال يخرجون مكنونهم في تثبيت السلم وتمكين أسبابه في الآفاق قاطبة إذْ نحن نسمع أصحاب السيوف يبشرون بالحرب المقبلة، ويحرّضون على الاستعداد لها كأن الأرض التي توارى في ظلماتها عشرةُ ملايين من الخلق لم ترتو منابتها من نجيعهم، ولا اغتدت جوارح سباعها بلحومهم.

ذكرت جريدة الأومانتيه الفرنساوية أن المارشال فوش خطب في جماعة من الانكليز فقال لهم في جملة كلامه:«خذوا للحرب المقبلة أهبتها، واحتاطوا لأنفسكم بأدواتها ولتكن هذه الأدوات بالغة من الكمال مبالغها لأنها القطب الذي عليها مدار الحرب في المستقبل».

هذا بعض ما قاله المارشال فوش، ولعل في إنبائه عن الحرب المقبلة شيئاً من الصواب لأن تقرير السلم إذا لم يتوسل إليه بوسائل توافق العواطف القومية وتطابق مصالح الشعوب فلا تكون عواقبه محمودة مهما استنبط من أجله من الحيل واستعمل من الدهاء.

والصلح الذي يبنى على منافع الغالب دون أن تراعى فيه منافع المغلوب لا يتراخى أجله، ولا تحمد مغبته لأن قلوب المغلوبين تنطوي على الضغائن والأحقاد، فلا يزال أصحابها ينتهزون الفرص حتى يتمهد السبيل لهم إلى الانقضاض على عدوهم والادراك لثأرهم فتعود الحرب أشد مما كانت في الماضي.

لما انقطعت الحرب بين ألمانيا وفرنسا سنة ١٨٧١ تحاملت ألمانيا على فرنسا، واشتطت في مصالحتها... فأعدت لها شروطاً شديداً احتمالها، فرضيت فرنسا بتلك الشروط مكرهة عليها ثم تذرعت ألمانيا بكل ما أمكنها من الذرائع وأرادت منها أن تقتل في نفوس أهل الالزاس لورين العواطف... القومية فاطرحت اللغة الافرنسية من المدارس، ونفت الذين يرغبون في التحول عن قوميتهم فلم تغن عنها ذرائعها شيئاً، وظل أهل الالزاس لورين مستعصمين بالعروة الوثقى من قوميتهم حتى كتب لهم الانضمام إلى من انفصلوا عنهم، وأصابت فرنسا ما ملأ صدرها من الثارات والذحول.

هكذا شأن الأمم التي تكرهها الشدائدُ على الاعتراف بأمور تنقص من قدرها، وتضيع من حقوقها... فإنها تنام عن الأذى حيناً من الدهر فإذا أمكنتها مناهز الفرص واجتمعت لها أسباب القدرة استيقظت من نومها وانقضت علي من حاول اجتياحها. فماهي الطريق التي يسلكها رجال المؤتمر توصلاً إلى استتباب السلم في العالم؟

أصبح القضاء على القوميات والعبث بالأمم الصغيرة من مصاعب الأمور التي ليس إلى إدراكها من سبيل.

وإذا تم للفاتحين في القديم أن يقضوا على شعب بجملته فلا يتم لهم هذا الأمر في عصر اختمرت فيه الثورات الاجتماعية، واستفاضت فيه مذاهب البولشفية في الأعم من أنحاء المعمور.فإذا بني السلم في هذا اليوم على مصالح الغالب والمغلوب على السواء، وروعيت فيه العواطف القومية حسنت نتائجه وامتدت آجاله. وإذا بني على غير هذين الأمرين وظلت الدول تحدث أنفسها بالاستيلاء على الشعوب الصغيرة فالحروب واقعة مهما كانت النظريات، ومهما عظمت المساعي وانفسحت الآمال.

جريدة المقتبس ـ الاثنين في ١٨ آب سنة ١٩١٩

التربية الوطنية

سمعت جندياً من جند الفرنسيس يقول:

(قتل أخي في موقعة فردون، وذهبت المنون بزوجتي خلال الحرب وطوت الليالي طفلاً لي كنت أحبه ملء قلبي، ولو استنهضني قومي مع هذا كله للذود عن مصالحهم في صحاري إفريقية حيث تلفحني السموم بحرها ما توانيت في ذلك مطرف عين).

يجاهد الفرنسيس ومن نشأ منشأهم في سبيل الوطن أصدق الجهاد سواء عليهم حمارة القيظ وصبارة القر، ونضارة العيش وخشونة الحياة... فهم مهما نزل بهم من النوازل ينشطون للنضال عن حياضهم، وينفرون لدفع الغوائل عن ربوعهم دون استعظام لشدة ولا استثقال لحمل.... فإنهم قد رزقوا قلوباً أشربت محبة آفاقهم، وأعيناً تأنس بالنظر إلى منبسط هضابهم ومنعطفات أوديتهم، وألسناً تلهج بمآثر قومهم في القديم والحديث.

والسبب في استسهالهم للصعب، واستعذابهم للموت في سبيل وطنهم أن الواحد منهم منذ وعى على نفسه علّمه أهله محبة بلده حتى صوَّر له في ذهنه أحسن الصور ومهَّدَ له في صدره أرفع المنازل، فلا يزال في منبثق الصبح ومنصرم النهار يولع بذكر آله وربعه...ثم تزداد هذه المحبة على تراخي الأيام بما يقتبسه في المدرسة التي يترعرع فيها من المبادئ الوطنية ما

يرسخ في قلبه من العواطف القومية حتى يكون هذا كله باعثاً له على تحصين ملكه من أن يعبث به عابث أو يطمع فيه طامع.

تباينت التربية الوطنية في هذه الأصقاع فتفاوتت بذلك المذاهب السياسية، وكان لهذا التفاوت نتائج تبينت لنا في الأيام الماضية.

نشأت طائفة في المدارس الأميركية فمالت أهواؤها إلى أميركا، وأخذ فريق علومهم عن الانكليزفعلقت أفئدتهم بانكلترا، وتخرج قوم على الرهبان الافرنسيس فآثروهم على غيرهم ولم يكن عندنا من المدارس الوطنية ما يدرب النفوس على محبة الوطن ويبث فيها المبادئ القومية، فتخالفت على هذه السبيل المعتقدات السياسية وكان من أمرنا ما كان.

من جملة الأمور التي ستكون سبباً في نجاح المصريين تآلف جماعاتهم وتعاطف طبقاتهم على تفاوت الملل والنحل، والسر في اجتماع ألفتهم وكلمتهم تربيتهم الوطنية، فقد كان القبطي في الأيام الأخيرة يعظ في مسجد المسلم، والمسلم يخطب في كنيسة القبطي... وعلى هذه الصورة كان الفريقان يداً واحدة في السراء والضراء.

وأصل الأمر في التربية الوطنية أن تستحكم في نفوس الأحداث منا المبادئ الوطنية منذ غضاضة عودهم، فيقفون على سِير الأعاظم من رجالهم وقوفاً يردعهم عن الاعجاب بنوابغ الأعاجم دون الاعجاب بنوابغ العرب ويتمكنون من آداب قومهم تمكناً يصرفهم عن استهجان لغتهم وإيثار سائر اللغات عليها، ويحيطون بتاريخ بلادهم إحاطة تصور لهضابها ووهادها ومروجها وشعابها أجمل الصور في العيون فلا يتذممون بعد ذلك من الفخر بآلهم، والامتداح لعشيرتهم، ولا يتثاقلون عن نجدة ربوعهم وتحويط ملكهم على نحو ما يفعله الذين لم يخالط قلوبهم حب

الوطن ممن نشأ في مدارس غير وطنية، وكان ميله إلى الأجانب أشد من ميله إلى أمته.

إذا أراد أهل هذه البلاد أن يكون آتيهم أحسن من حاضرهم، وأن يكونوا أمة تماثل الأمم العظيمة في محاسن أوضاعها فليتقيلوا طرائق الفرنسيس وأمثالهم من الذين نشأوا على محبة أوطانهم، ولينسحبوا على أذيال المصريين في تقارب قلوبهم، فإن التربية الوطنية أضمن شيء لحسن مستقبلنا.

جريدة المقتبس ٢٢ تشرين ١٩٢٢

مستقبل اللغة العربية

على قدر ما يجتمع للدولة من أسباب القوة والعظمة يكون انبساط لغتها، وبنسبة العاكفين على التبحر في أساليبها والمقبلين على التوسع في مذاهب كلامها يكون امتدادها في آفاق الأرض، وكلما صغر شأن الدولة وتراجع عمرانها وانتقضت أحوالها، وانحطت منازلها ضعفت لغتها، وكلما انصرفت العقول عن النظر في غوامض اللغة وزهد الناس في الامعان في تصانيفها دنا أجلها.

ولا تزداد الأمة تفنناً في الحضارة والعلوم إلا إذا استفحلت لغَتها واستبحرت أساليبها.

أتى على الشرق حين من الدهر واللغة تتقلب خلاله في الانحطاط، حتى أشرفت على الهلاك. فإن الترك الذين وقع ظلهم على جو هذه البلاد من زمن غير قريب قد أصروا على اصطلام العرب، والذهاب بآثارهم حتى لا ينافسوهم في منازع الملك، ولا يزاحموهم في مناصب الدولة، وتقدر لهم الغلب عليهم، فتفرغ رجالهم لقضاء ما هموا به من نسخ ظل العرب فقرروا في صدر الأمر أن ينشروا العلوم في مدارسهم بلغتهم حتى تستحكم في عقول الصغار من التلاميذ ملكاتها وينشأوا على الاسترسال إليهم والانقباض عن قومهم، وصار العربي لا يعرف من تاريخ قومه وآدابهم أكثر مما يعرفه من تاريخ الترك وآدابهم، ولا يستظهر من بليغ المنطوم والنثور من كلام العرب أكثر مما يستظهره من كلام غيرهم،

وهذا أمر لو طالت أُلفتنا إياه وملابستنا له لبلغت لغتنا من الانحطاط مبلغاً يتعذر عليها الارتفاع بعده.

ثم قررت دولة الترك مبالغة في استئصال العرب أن تكون اللغة في مناصب الدولة لغة تركية فصار الرجل منّالاً يتيسر له أن يخاطب الحاكم وهو في صميم بلاد العرب إلا بلغة الترك التي لا تلبث أن تذهب آثارها بذهاب رجل دولتها.

ولو أراد الله بدولة الترك خيراً لهداهم في سياستهم الطريق الأقصد حتى يعلموا أن من مقتضيات السياسة أن تنصرف حكومتهم إلى إعلاء العربية كل الانصراف لأنها اللغة الجامعة بين المسلمين قاطبة، فإن من الواجب على كل مسلم أن يكون له علم بأسرارها، وليس من الواجب عليه أن يعرف التركية، غير أن الترك الذين عزموا على اجتياح العرب وتعفية آثارهم لم يتم لهم غرضهم، ولا ظفروا بمقاصدهم كل الظفر... فقد تظاهرت عليهم الشرور والمحن ووقعوا فيما لا مخرج لهم منه.

وقد أصبحت اللغة العربية التي كنا نخاف عليها شر يوم عظيم، لغة دولة عربية حالفتها أقدر الأمم على سياسة الشعوب وأعلاها كلمة، ومنزلة، وأكثرها مالاً، وأعظمها جاهاً... فلا خوف عليهامن الانحطاط والانقراض، وجدير بأبنائها أن تكون همتهم مصروفة إلىالاطلاع على أساليبها، والوقوف على مذاهبها، والنظر في مصادرها ومواردها فإن الأمة لا يتهيأ لها الارتفاع إلا إذا ارتفعت لغتها، ولا ترتفع اللغة إلا إذا كان أصحاب الأمر مهتمين بها، والناس عاكفين على دراستها.

هذه طائفة الاسرائيلين في فلسطين فقد تبين لهم أن الجامع لكلمتهم، والمؤلف لشملهم، والناهض بهم إنما هو لغتهم، فقرروا لذلك أن يتبحر

كل منهم في العبرانية منذ حداثة سنه حتى نبغ فيهم الشعراء والكتاب، وصارت العبرانية لغة حية بعد أن قربت من الموت.

ونحن نحمد الله إذ بلغنا وقتاً لا نخاطب فيه حاكمنا إلا بلغتنا العربية، ولا يقرأ التلميذ علومه ودروسه إلا بها وهذا يوم لا يعدله في الدهر يوم.

فقد أخذ رجال الحكومة يفكرون في أن ينتخبوا الذين رسخت أقدامهم في اللغة ويفضلوهم على غيرهم فإن الأغلب من مناصب الدولة يحتاج صاحبها إلى الكتابة.

وإنا لنرجو علماء الأدب الذين نشأوا عليه، وعلت منزلتهم فيه، وتمهلت أقلامهم في روض البيان أن يتفرغوا للبحث في اللغة والأدب فإن السياسة لا تصقل العقول، ولا تشحذ الأذهان، وأن يهتموا بنقد ما تقع عليه عيونهم من الأساليب التي لم تستعملها العرب حتى لا يستفيض الخطأ ولا يكثر اللحن، فإذا اهتم رجال اللغة بالنظر في هذا الأمر الجليل لم يأت على اللغة برهة من الدهر إلا وهي في منزلة اللغات الصالحة ولن يمضيَ على هذه الأمة زمن يسير إلا وهي في درجة الأمم المرتفعة.

جريدة لسان العرب في ١٩ تشرين الأول ١٩١٨

القاموس السياسي

هذا كتاب ضمنه صاحبه ما تشتمل عليه السياسة من المفردات والأساليب، وقد توسع مؤلفه في شرحها على نحو ما يفعله علماء اللغة في قواميسهم وإليك شيئاً مما جاء فيه:

التصريح في علم السياسة كلمة مرادفة للابهام في علم اللغة، ومن ظن أنه بمقابلة رجل من رجال السياسة يستطيع أن يقف من تصريحه على سر دفين فقد ظن إثماً، ومصداقاً لذلك نثبت هذه الرواية:

(جرت العادة أن يستقبل المسيو بيشون ناظر خارجية فرنسا أصحاب الصحف يوماً في الأسبوع ويصرح لهم بما يجري من الأمور السياسية في المؤتمر، فلما كان ذلك اليوم اجتمع أرباب الصحف على عادتهم وتواطؤوا على مواجهة المسيو بيشون، وبعثوا من يخبره بقدومهم عليه... فلما علم الوزير ذلك تهيأ لاستقبالهم، فلبس ملابسه الرسمية وجلس لهم في غرفة الضيوف، فخف رجال الصحف لملاقاته فلما صاروا في باب غرفته استأذنوا في الدخول عليه فأذن لهم في ذلك، فدخلوا فرفع المسيو بيشون مجلسهم وهش بهم، وجعلوا يتجاذبون أطراف الحديث... فكان الرجل من رجال الصحف يسأل الوزير مسألة سياسية فيجيبه عنها بهذا الكلام.

«غداً نعرض المسألة على رجال المؤتمر... إن رجال المؤتمر سوف ينظرون في هذا الأمر... لاعلاقة لهذا الأمر برجال المؤتمر.

وأمثال ذلك من الجوابات المبهمة حتى فرغ المسيو بيشون من الكلام وكأنه قد حط عن ظهره عبئاً ثقيلاً، وأفضى إلى جلسائه بأسرار عظيمة... فخرج رجال الصحف من عنده راجعين بخفي حنين... إيابهم كذهابهم، ومعرفتهم مثل جهلهم.

الاستقلال ـ لم يذكر صاحب القاموس في باب الاستقلال إلا حكاية الذئب والكلب وهذه خلاصتها:

«زعموا أن ذئباً مهزولاً صادف كلباً سميناً فاشتهى أن يثب عليه ويفترسه، إلا أن قوة الكلب حالت دون مراده... فلما لم يجد له في الأمر حيلة أقبل عليه وحياه تحية الذئاب وجعل يهنئه بتمام عافيته وكمال صحته فقال له الكلب: إن الصحة يا سيدي لا تصلح إلا لمن هو مثلك، فاهجر مكانك من الغاب حيث تقل الأرانب، وينضب الماء، ويخشن العيش، وتعال معي فإنك تحصل على صلاح حالك: فسأله الذئب عما يجب عليه أن يفعله في ذلك فقال له الكلب شأنك أن تعوي وتطرد الذين يحملون العصي والذين يستعطون، وسيكون غذاؤك لحم الدجاج والطير فضلاً عن ملاطفة أصحابك، وإياك وتملقهم لك... فسكن الذئب إلى هذا الكلام وطابت له نفسه فانطلق مع الكلب، فقال له:

ما الذي أراه في عنقك؟

فقال: لا شيء.

فقال الذئب: كيف تقول لا شيء؟

فأجابه الكلب بهذا الكلام، لعل القلادة التي تجعل في عنقي هي السبب في الذي تراه.

فصاح الذئب بأعلى صوته:

قلادة في عنقك!!! لا تستطيع أن تذهب حيث تشاء؟

فقال له الكلب: كلا فأنا لا أستطيع ذلك في كل حين، ولكن لا أجد لي في هذا الأمر هماً.

فقال الذئب: لاتجد لك همّاً... إلا أنني لست أؤثر على الحرية شيئاً... ولئن أكون مهزولاً وأنا حرٌّ أذهب حيث أشاء خير لي من أن أكون سميناً وأنا مقيد لا يمكنني التصرف في أموري... قال الذئب: هذا ومضى مهرولاً.

العرب ـ كانت كلمة العرب في قواميس أوروبا مرادفة لكتاب «ألف ليلة وليلة» فلما قدم الأمير فيصل أوروبا، وعرّف أممها حقائق العرب أدرك أصحاب القواميس خطأهم فأصلحوه واستبدلوا بـ«كلمة ألف ليلة وليلة» كلمة «استقلال» «لا حماية ولا وصاية».

هذا بعض ما حواه القاموس السياسي وهو كله من هذا النمط... رحم الله من ألفه.

جريدة المقتبس في ٢٢ أيار ١٩١٩.

دولة العمال

ليس الذين يتزعرعون في قصور الملوك فتجتمع لهم أسباب السيادة من غير أن يدأبوا في طلبها ويجهدوا في التماسها مثل الذين ينشأون في أكواخ العامة فتبلغ بهم عزائمهم مراتب الوزراء والملوك بحسن الاجتهاد وإدمان العمل.

من كان يهجس في صدره أن رجلاً من العامة نشأ في حدثان أمره على مزاولة الخياطة في برلين، ثم نزعت به همته إلى جلائل الرتب فخلف غليوم امبراطور ألمانيا في عظيم ملكه، وأذعنت له جماهير الألمان بالرئاسة؟ هذا الرجل هو فردريك إيبرت... إلا أنه ما استوجب الملك إلا بعد أن استجمع للناس لُبّه وتبين لهم عقله.

ولو نقبنا عن الذين ينظّرون عصرنا هذا في شؤون الأمم، ويضعون القوانين التي سيبنى على أصولها العالم بجملته لوجدنا أن معظمهم من أواسط الناس الذين لم يألفوا في غضاضة عودهم نضائد الديباج، ووسائد الحرير، ولا تبوؤوا الصروح الممردة... وإنما أحرزوا ما أحرزوه ببارع فضلهم، وغزير علمهم.

هذا «ولسن»، ما كان أبوه إلا واعظاً عاش ومات في فرجينيا ولم يبعد صيته في الآفاق.

وهذا لويد جورج، فقد مات أبوه وأمه وهو طفل صغير فتبناه عمه رتشرد الذي كان يعالج حرفة السكافة وأقام على رياضته وتربيته.

وهذا كلمنصو، فقد هجر بلاده إلى أميركا ومارس التعليم في مدرسة صغيرة من مدارس كمنكيت، وإليه اليوم ينسب الفضل في تثبيت ملك فرنسا، ودفع الغوائل عنها.

فلا حاجة بنا إلى أن نذكر في هذا المقال الوجيز غير من سبقت الاشارة إليهم من الذين تطاولوا للمعالي الخطيرة و لم يكونوا من الأماثل في قومهم... ولعل السر في تبريز العامة أن الرجل منهم يجهد الجهد كله في تحسين حاله، وتعزيز شأنه تحفظاً من أن تذهب الفاقة به، أو رغبة منه في مجاراة الأعاظم من الناس في جميع أطوارهم ومذاهبهم.... فلا يزال يتقلب في الأقدار الشريفة حتى يبلغ منها المبالغ، فكما أن لأحوال البلاد الجغرافية تأثيراً في نمو أهلها ووفور عمرانهم، كذلك فإن لأحوال الخلق تأثيراً في علو قدرهم، ونباهة ذكرهم.

فلا يحولن انحطاط المرء في نسبه دون ما يستحقه من المنازل الرفيعة فإن هذا المذهب قد دلت على فساده التجارب... وفاقمت في نقضه الثورات حتى قامت مقامه المبادئ الديمقراطية، وأخذت تتأصل في الأعم من الشعوب، فأصبحت الطوائف العامة لاتعوقها العوائق السياسية عن مناصب الملوك.

ولا عجب فإن الأمم لا تزداد تبسطاً في منازع الحضارة إلا ذهبت آثار التفاضل في الاجتماع والسياسة، واستقرت فيها أصول التساوي والتعادل.

جريدة المقتبس في ١١ آذار ١٩١٩

هكذا الرجال

حملت إلينا جوائب الأخبار أن ماك سويني حاكم كورك قد فاضت نفسه من بعد ما جاهد في سبيل وطنه جهاداً منقطع النظير... فقد زهد في بهجة الدنيا وأمسك عن الطعام وهو في سجنه ثلاثة وسبعين يوماً وساعتين وأربعين دقيقة لم يأكل في خلالها كسرة خبز، ولا شرب جرعة ماء.

لا حاجة إلى المزيد من القول في ماك سويني فقد ذهب صيته في الآفاق، ودرى بقصته الذين يطالعون الصحف في المشرق والمغرب.

إذا كان الموت في سبيل الوطن يشرف مقام صاحبه ويرفع منزلته فإن حاكم كورك قد مات ميتة يتمناها كل طموح إلى العظمة الصحيحة، ويشتهيها كل ولوع بالمجد الصميم.

وإذا كان الناس ينصبون التماثيل لأعاظم البشر تخليداً لذكرهم على تراخي الأيام فإن أهل إيرلندا وأصحاب الميل إلى الحرية من سائر الأمم قد أنشأوا لماك سويني في حواشي صدورهم منزلة لاتذهب رسومها على وجه الدهر.

لئن جاء ليبنز بفلسفة التفاؤل وكونت بالشريعة الإنسانية، ولئن أنشأ سبنسر فلسفة النشوء، وجاء رونتجن بأشعته... لئن جاء هؤلاء العلماء والفلاسفة وأمثالهم بأصول العلم والفلسفة عُرفوا بها وعرفت بهم، ونُسبوا إليها ونسبت إليهم فإن صاحبنا ماك سويني قد جاء بفلسفة أعلى.

علمنا حاكم كورك ما لم نعلم وهدانا إلى ما لم نهتد إليه!

علمنا أن للوطن على آله حقاً ثابتاً وواجباً أكيداً... وأرشدنا إلى قضاء هذا الحق، وأداء هذا الواجب.

وضع ماك سويني للأمم المغلوبة على سلطانها فلسفة وطنية بنى أصولها... ثم طبق فلسفته بنفسه، وشفع مقاله بفعاله فقتل نفسه ليحيا سواه... فكان خير قدوة يقتدي به المقتدون في الشؤون الوطنية.

مات حاكم كورك ولكنه قد خلف له من محاسن الآثار مالا تطويه الليالي، ولا يخلق جدَّته الزمان.

لا ينهض الوطن إلا بأمثال ماك سويني الذين يؤثرون الموت على الحياة في سبيل رفعته وعلائه، ويخرجون عن الدنيا ليمهدوا لقومهم مسلكاً إلى الحرية والاستقلال... فقد ثبت بالتجارب أن المجاهدة بالأموال والأنفس أفضل وسيلة يتوسل بها الناس إلى هذين الأمرين.

عرفنا طريقة ماك سويني في المجاهدة بالنفس في سبيل الوطن، ومن أراد أن يعرف طريقة المجاهدة بالمال فليقرأ هذا:

أرسل سعد باشا زغلول إلى قومه أن يبعثوا له مئتي ألف جنيه ينفقها على تأييد دعوته في أوروبا... فلما وصلت رسالته إلى الحزب الوطني حاول الموسوسون أن يوسوسوا للناس أن سعد باشا إنما طلب هذا المال ليصرفه في سبيل لهوه وعبثه... فكتب حينئذٍ أصحاب الصحف في مصر تفنيداً لهذا الكلام الباطل أن لا حرج على سعد باشا في أنفاق المال على لذته إذ أنه قد جهد نفسه في سبيل الوطن، ولا بد من الراحة بعد التعب... فلم يأت يومان أو ثلاثة على رسالته إلا وأهل مصر قد جمعوا له

المال وبعثوا به إليه وهم واثقون بأنه لم يطلب هذا المال إلا ليصرفه في سبيل القضية المصرية و لم يبالوا بفساد المفسدين.

حاكم كورك قدوة المجاهدين بالأنفس في سبيل الوطن، والأمة المصرية قدوة المجاهدين بالأنفس والأموال معاً.

جريدة المقتبس ٢٤ تشرين ١٩٢٠

تأليف القلوب

يقول الأستاذ المغربي في كتاب قدمه لمجلس المعارف الكبير خلال هذا الأسبوع:

«أقترح على مجلس المعارف انتخاب عضوين مسلمين من أعضاء المجلس المشار إليه والطلب من لجان المدارس المسيحية المختلفة أن يقبلوهما بصفة عضوين فيحضرا الجلسات، ويشرفا من كثيب على طرائق التربية والتعليم فيها، وكيف يكون تطبيق البرنامجات التدريسية، وبهذه الصورة يمكننا معشر المسلمين أن نقتبس من هذه البرنامجات الحكيمة والطرائق النافعة مافيه فائدة لمدارسنا الابتدائية والثانوية، ويكون ذلك إذا راعيناه أو بعضه في مدارسنا مساعداً على توحيد أبناء الشعب العربي في طرائق التعليم والتربية من جهة، وإفراغ نفوسهم مع نفوس الطلاب المسيحيين في قوالب الوحدة العربية وتكوينهم أمة واحدة من جهة ثانية والسلام».

من جملة مابلي به هذا الشرق من المحن والشدائد نزول الأديان على آفاقه، واستفاضتها في أجوائه وقد كانت هذه المذاهب في قديم الدهر مجلبة لحروب شديدة أوردت أهلها موارد استهمت عليهم مصادرها، وأنشأت في قلوب رجالها إحناً وضغائن كان أمرها ما كان، وتباين الملل والنحل في عصرنا المتأخر أفضى بنا إلى معضلات سياسية حلت على صورةٍ هيهات أن يرضى بها الذين عقدوا القلوب على محبة ديارهم.

كان تخالف المعتقدات في بلادنا سبباً في تخالف الطوائف من الناس، فكنت ترى الرجلين وقد جمعهما بلد واحد وأظلتهما سماء واحدة يذهبان في التنافر كل مذهب، ويقومان في التطاعن كل مقام... فأدى تخالف المذاهب إلى تباين الآراء وتضارب الأساليب في التربية والتعليم، فنشأ في الصقع الواحد رجال نهجوا في هواجسهم وأفكارهم مناهج شتى لا توافق بينها وسلكوا، من أجل ذلك في شؤون وطنهم مسالك متباينة... وفي هذا الأمر من الخطل الجلل ما فيه.

ومما زاد في المصائب نشوء مدارس للأجانب في ظلال ربوعنا، وخلوّ هذه الديار من مدارس وطنية عامة... فكان الذين يتأدبون في مدرسة أميركية يولعون بأميركا، ويصرفون أذهانهم إلى درس تاريخها والتمكن من آداب أهلها، ويؤثرونها على غيرها من الدول، وكان الذين يعمدون لمدرسة فرنسية يبذلون ودهم لفرنسا، ويقتبسون من أخلاق رجالها وأوضاعهم، وعاداتهم، وكذلك حال الذين فيأتهم المدارس الانكليزية فإنهم يحَلوُّن إنكلترا المحل الأرفع فإذا نزلت بهذه البلاد نازلة وتوسطت دول أوربا في الأمر أخذت كل طائفة تميل إلى الدولة التي تعلمت في مدارس رعيتها وتفضلها على غيرها في الانقياد لسلطانها وقد شاهدنا هذا من عهد غير بعيد، وأفضى بنا إلى مانحن عليه في هذا الحين.

فأرشد وسيلة إلى التقريب بين ما تباعد من القلوب، وصرف العزائم إلى غاية وطنية عامة إنما هو تمازج الطوائف وتخالطهم، وهذا ما يرمي إليه الأستاذ المغربي في مقترحه الذي تقدمت الإشارة إليه في صدر المقال.

ربما كان للنصارى في مدارسهم فنون في التربية والتعليم غير فنون المسلمين، وربما كان للمسلمين مذاهب في التثقيف والتأديب غير مذاهب النصارى... فمن الضروري أن تتشابه أساليب الفريقين في التربية عامة،

وفي الغايات الوطنية خاصة... وعلى هذه الصورة يكون التعليم في البلاد واحداً فيتم تعاطف القلوب وتساند الرجال في قضايا الوطن.

يعوز هذه البلاد في جملة ما يعوزها مدارس وطنية عامة تجمع بين النصارى والمسلمين على السواء وقد شاهدنا من هذه المدارس حتى اليوم مدرستين كبيرتين وهما كلية الطب وكلية الحقوق فإن فيهما تلاميذ من ملتين مختلفتين... وفي هذا دنو من الغاية التي يتوخاها الوطنيون، بيد أن الذي تشتد إليه الحاجة إنما هي المدارس الصغيرة التي تجمع أطفالاً من ملل مختلفة يكونون على الفطرة فيشربون محبة الحرية والاستقلال ويربون التربية التي تنزع بهم إلى هذين الأمرين.

من الأمور التي أدخلت على قلوب المصريين محبة وطنهم وجعلتهم يداً واحدة على عدوهم ائتلاف تربيتهم وتماثل أساليبهم في التعليم، ولولا ذلك لما وجدوا سبيلاً إلى اجتماع ألفتهم، ولما تجردوا شيبهم وشبانهم، وفتيانهم وفتياتهم على تباين الملل والنحل للذود عن حياضهم، والمراماة دون ربوعهم.

يقول فريق من الناس:

«المسلمون والنصارى إخوان في هذه الديار وهذا قول لا يقدم الدليل عليه إلا إذا درس النصارى في مدارس المسلمين، وتعلم المسلمون في مدارس النصارى وتماثلت أساليبهم في التربية والتعليم فمتى تأكد عندك هذا الأمر فقل:«المسلمون والنصارى أخوان في وطنهم» ولا تخشَ بعد ذلك تنافر آرائهم في شأن من شؤونهم الوطنية.

جريدة المقتبس ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٢

العطف على رجال الأدب

روت الجرائد أن السيدة الفرنساوية أوكتاف ميربو أتاحت لرجال الأدب أن يتصرفوا في جميل ملكها، وأن يستظلوا بظلاله عطفاً منها على ما يمسهم من العناء والتعب في ممارسة الأدب فمهدت بذلك لنفسها السبيل إلى حسن الأحدوثة وطيب الذكر، وهذا أفضل ما يصيبه المرء من أمور دنياه.

إن لرجال الأدب في آفاق أوربا أنصاراً وأعواناً يستنفدون وسعهم في مضافرة هذه الطبقة من الناس تنشيطاً لأنفسهم واستنهاضاً لهممهم، واعترافاً منهم بما يتم لهم على يدهم من تهذيب الأخلاق وتثقيف العقول.

ولو ذهبوا إلى خذلانهم والتهاون بأمرهم لسلك اليأس في أهل الأدب أبعد مسالكه ولانقطعت قرائحهم عن تتبع صناعتهم الشريفة والاجادة في فنونها.

ولقد بلغ من اعتناء رجال الانكليز بالأدب أن الطائفة منهم إذا عزمت على الشروع في عمل جزيل النفع أشارت إلى شاعر من شعرائها أن ينظم فيه قصيدة ثمنها يتصاعد على التدريج حتى يبلغ أربعة أو خمسة آلاف جنيه.

وقد كان روزفلت رئيس أميركا السابق يأخذ ريالاً أميركياً بدلاً من كل كلمة يكتبها في الجرائد، ولا حاجة بنا إلى إثبات ما كسبه روستان

في فرنسا من آلاف الجنيهات بما وضعه من رائع الروايات وعلى الخصوص رواية «شانتكلر» التي ذهب صيتها في الآفاق.

وأمثال روستان كثيرون في أوربا.

ولا نرى رجال أوربا يقتصرون على الاهتمام بالأدباء في حياتهم، ولكنهم يخلدون ذكرهم بعد مماتهم بما ينصبون لهم من التماثيل، أو بما يسمون باسمهم من الجامعات العلمية والمراكب البحرية احتفاظاً بآثارهم على تراخي الأيام.

مات فولتير وروسو وهوجو ولكن أسماءهم لا تزال ثابتة في لوح الأسماء الخالدة في باريس فلا تنسخها العصور، ولا تخلفها الأعوام... ولاعجب فإن الكاتب منهم ينمق مقالته فيكون لها من التأثير في المقامات السياسية والمحتفلات الاجتماعية أشد مما للسيوف من الوقع في مواطن القتال.

وقد كان العرب في بحبوحة عزهم وانبساط سلطانهم يعطفون بالكرم على رجال الأدب، ويبالغون في تبجيلهم وتعظيمهم لما كان لهذا الفن من رفيع المنزلة في قلوبهم.

هذا سيف الدولة فإنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء والأدباء، وكان يرفع مجالسهم ويفيض العطاء فيهم، ولما اتصل المتنبي بحضرته وانخرط في سلكه درت له أخلاف الدنيا على يده.

وكيف لا يذهبون هذا المذهب والأدب قد جعل صقالاً للعقول، ودليلاً على مقاطع الحق ومواقع الباطل... فهو الباعث على كل فضيلة،

والناهض بكل جماعة... فضلاً عما له في الأفئدة من التأثير حتى أن شعر البلغاء في القديم كان أشد على عدوهم من وقع السهام في غلس الدجى.

ومن موجب الأسف أن الأدب في عصرنا هذا لم يبق لسوقه من الرواج ما كان لها فيما مضى... فقد مات الشيخ ابراهيم اليازجي و لم يستفد من توسعه في مذاهب الكلام وسعة اطلاعه على أسرار اللغة إلا رقة الحال وقلة ذات اليد.

فهل ينظر الأغنياء في بلادنا إلى أدبائهم نظرة السيدة ميربو إلى أدباء بلادها أم يقولون:«لها دينها ولنا دين...»؟

﴿سنصبر... إن الله مع الصابرين...﴾

جريدة المقتبس في ٢٣ آذار ١٩١٩